

1

الفصل الأول

ماهية علم النفس

- ◀ 1-1 مقدمة
- ◀ 2-1 ماذا يعمل عالم النفس؟
- ◀ 3-1 تاريخ علم النفس
- ◀ 4-1 أهداف علم النفس
- ◀ 5-1 الاتجاهات الأساسية في تفسير الظاهرة السلوكية
- ◀ 6-1 الميادين الكبرى لعلم النفس
- ◀ 7-1 مناهج البحث في علم النفس

1-1 مقدمة

تبدأ معظم كتب علم النفس بسؤال أساسي يتعلق بمهية علم النفس محاولاً تعريفه، وتذهب هذه الكتب إلى إعطاء تعريفات متنوعة يعكس كل منها المدرسة التي ينتمي إليها المؤلف أو الاتجاه الذي يتبعه في الوصول إلى المعرفة. فبينما يعرفه أحد العلماء على أنه «العلم الذي يدرس السلوك» يعرفه آخر على أنه «العلم الذي يدرس النشاطات والوظائف العقلية». وفي الحقيقة فإن الاتفاق على تعريف واحد لعلم النفس لا زال بعيد المنال، ولعل ذلك شيء مفيد في المرحلة الحالية من تطور علم النفس. إن علم النفس علم حديث بالنسبة إلى العلوم الأخرى، وإن السنوات الأخيرة تعتبر بمثابة سنوات تفجر المعرفة السيكولوجية. ولكن، وعلى الرغم من ذلك فإنه يمكن القول إن علم النفس يحاول الإجابة على السؤال التالي: «لماذا يتصرف الناس بالطريقة التي يتصرفون بها؟»

ومن الطبيعي أن تكون الإجابة على هذا السؤال؛ أي لماذا يتصرف الناس بالطريقة التي يتصرفون بها؟ متباينة بقدر تباين الاتجاهات الأساسية المعاصرة في علم النفس، فلو أخذنا سلوكاً بسيطاً كسلوك اجتياز الشارع فإن هذا السلوك يمكن تفسيره من أكثر من وجهة نظر؛ فقد يقول أحد إن هناك إشارات عصبية تسير عبر الأعصاب إلى الدماغ، الذي يعمل بدوره على تنشيط العضلات، التي تقوم بدورها في تحريك الأرجل التي تنقل الجسم عبر الشارع. ويقول ثانٍ إن رؤية الضوء الأخضر، الذي هو إشارة لإمكانية الاجتياز، هو الذي يثير سلوك الحركة عبر الشارع. ويقول ثالث لا بد من أن يكون هناك هدف معين من وراء اجتياز الشارع ومحاولة الوصول إلى ذلك الهدف هو الذي يدعو الفرد إلى القيام بسلوك الاجتياز.

ولكن على الرغم من ذلك فإن هناك مجموعة من المعتقدات الشائعة بين الناس حول طبيعة علم النفس. فغالباً ما يعتقد الناس بأن عالم النفس قادر على سبر غور شخصياتهم ومعرفة خصوصياتهم، فتراهم يصابون بالارتباك أو يشعرون بالتردد إذا ما طلب إليهم الإفصاح عما يفكرون به أمام المختص في علم النفس. كما أن كثيراً من الناس يعتقدون أن لدى عالم النفس مجموعة من الحيل والأساليب الخاصة التي يستطيع أن يستعملها في حل المشكلات سواء كانت تلك المشكلات شخصية أم عائلية أم متعلقة بالزواج. ولعل هذا الاعتقاد يعود إلى الدعاية القوية التي رافقت التحليل النفسي سواء كان ذلك في القصص أم في الأفلام التلفزيونية أم السينمائية.

إن عالم النفس المتمرس والذي قضى سنين طويلة في إعداد نفسه، لا يمكن أن يدعي بأنه يستخدم أي نوع من السحر أو الحيل لفهم سلوك الناس أو حل مشكلاتهم. وإن أحد أهم النتائج التي توصل إليها علم النفس هو أن السلوك البشري ينجم من تفاعل عدة عوامل معقدة ومتشابكة، إلى درجة أنه يصبح من الصعب على الكثير منا أن يفهم لماذا يتصرف بالطريقة التي يتصرف بها، ناهيك عن صعوبة فهم سلوك الآخرين والتأثير فيه.

وتمَّ اعتقاد آخر شائع بين عدد كبير من الناس حول طبيعة علم النفس وحدوده نشأ من النتائج المترتبة على استخدام الاختبارات والمقاييس النفسية. وعلى الرغم من أن هؤلاء الناس من المحتمل ألا يكونوا قد تعرضوا خلال حياتهم إلى أي اختبار نفسي، وعلى الرغم من أن فهمهم لطبيعة الاختبارات النفسية قد يكون محدوداً أو مشوشاً على أحسن الأحوال، على الرغم من كل ذلك تراهم يتحدثون عن اختبارات الذكاء، أو اختبارات الشخصية، أو اختبارات اتجاهات الرأي العام بلغة الواثق والخبير. وصحيح أن جزءاً من المعرفة السيكولوجية تبنى على نتائج عدد من الاختبارات إلا أن علم النفس يعتمد على مصادر أخرى متعددة من أجل الوصول إلى الحقائق والمعلومات. ناهيك عن أن الكثير من الاختبارات التي يطلع عليها الناس على صفحات المجلات والجرائد لا تتمتع بأي أهمية أو قيمة علمية، وما هي إلا نوع عام من الأحاديث أو وسائل التسلية.

أما الاعتقاد الشائع الآخر عن علم النفس والذي ربما نما نتيجة المسلسلات التلفزيونية، فيقوم على أساس الإثارة الكهربائية للدماغ أو التحكم في سلوك الإنسان عن طريق العقاقير. ولقد صاحب هذا الاعتقاد اتجاه مؤداه أن عالم النفس قد يتمكن في المستقبل القريب، نتيجة ازدياد علمه، من التحكم في عقل الإنسان وتوجيه سلوكه كيفما شاء. والحق أن الاختبارات التي أجريت على الحيوانات حتى الآن زودتنا بنتائج باهرة، فقد أمكن استثارة سلوك العدوان عن طريق تهيج بعض مناطق الدماغ عند القطط والقردة. ولعل أبرز الأمثلة على ذلك ما توصل إليه العالم الإسباني ديلجادو (Delgado)؛ إذ تمكن هذا العالم من أن يغرس في دماغ الثيران أقطاباً كهربائية يمكن إثارتها عن طريق التحكم الآلي البعيد (remote control) وبذلك تمكن عن طريق الضغط على زر معين من تهيج الثور بحيث يبدأ بالركض نحو المصارع، وقبل وصوله إليه بثوانٍ معدودة، وعن طريق الضغط على زر آخر يقف الثور في مكانه مثيراً حوله زوبعة من الغبار.

إن هناك بعض الحقيقة حول هذا المعتقد عن طبيعة علم النفس ودوره؛ فعلماء النفس قد تعلموا حقاً الشيء الكثير عن العقاقير والإثارة الكهربائية، وعن كيفية تأثيرهما على الدماغ، ولكن الاكتشاف الأهم الذي توصلوا إليه في هذا المجال هو أن الدماغ على درجة كبيرة من التعقيد ويتميز بقدرة لا متناهية على استخدام دوائر (circuits) بديلة عند تعطل الدائرة الرئيسة بحيث تبدو فكرة التحكم في الدماغ إزاء هذا الاكتشاف أمراً بعيد الاحتمال وضرباً من خيال الكتاب.

وعلم النفس في الحقيقة أوسع من هذه المعتقدات السائدة، وهو بالتأكيد ليس نوعاً من السحر الجديد الذي يمكن أن يشفي من المشكلات التي يعاني منها الناس من جهة، وهو كذلك ليس ضرباً من التهديد للتحكم في عقل الإنسان من جهة أخرى.

إن علم النفس يدرس مدى واسعًا من السلوك البشري، وقد توصل إلى معرفة كبيرة عن هذا السلوك بأوجهه المختلفة.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن علم النفس بالإضافة إلى اهتمامه بدراسة السلوك البشري، فإنه يدرس سلوك الحيوانات أيضًا. فاهتمامات عالم النفس تصل إلى كل الكائنات الحية التي يطلق عليها علميًا اصطلاح العضويات (organisms). فهناك علم النفس المقارن الذي يدرس سلوك الكائنات الدنيا ومدى تشابهها أو اختلافها مع سلوك البشر. ومن الجدير بالذكر أن هذا الميدان ينمو بسرعة كبيرة؛ ذلك لأن دراسة سلوك الحيوانات الدنيا أسهل بكثير من دراسة سلوك الإنسان، ناهيك عن أن دراسة سلوك الإنسان تحده اعتبارات إنسانية وأخلاقية وعملية متعددة.

ولعل أفضل تعريف لعلم النفس بعد هذه المقدمة هو التعريف بالقائل بأن علم النفس «هو ذلك العلم الذي يدرس السلوك الظاهر دراسة نظامية ويحاول تفسير علاقته بالعمليات غير المرئية التي تحدث داخل العضوية سواء العقلية منها أو الجسدية من جهة، وعلاقته بالحوادث الخارجية في البيئة من جهة ثانية».

إلا أن التصور الكامل لحقيقة علم النفس لا يمكن أن يتم إلا من خلال دراسة ما يوازي مساقًا كاملًا في علم النفس العام، أو من خلال دراسة جامعية كاملة لعدد من المساقات في ذلك المجال.

والإجابة على الأسئلة الآتية تساعد على تكوين تصور أوضح لحقيقة علم النفس وماهيته:

- 1- ماذا يعمل عالم النفس؟
- 2- ما الاتجاهات المختلفة في محاولة تفسير الظاهرة أو الظواهر التي يدرسها عالم النفس؟
- 3- ما الميادين الكبرى التي يهتم بها عالم النفس؟
- 4- ما الطرائق التي يتبعها عالم النفس في الوصول إلى المعرفة المتعلقة بالظواهر التي يدرسها؟

2-1 ماذا يعمل عالم النفس؟

إن عالم النفس على مساس مباشر بمعظم جوانب حياة البشر؛ فهو يهتم بدراسة سلوك الفرد في كل المجالات الممكنة؛ وهو يتعلم في البيت والمدرسة، وهو يتفاعل مع الآخرين، وهو ينمو يوميًا بعد يوم، وهو يبيع ويشترى، وهو يحارب ويقاوم، وهو ينتج ويستهلك، وهو يضطرب ويتوتر... وكلما أصبح المجتمع أكثر رقيًا وتعقيدًا أصبح دور عالم النفس في حل مشكلات المجتمع أكبر فأكبر. وعلى الرغم من أن الكثير من علماء النفس لا ينطلقون في أبحاثهم لحل مشكلة اجتماعية مستعصية إلا أن حصيلة المعرفة السيكولوجية المتجمعة من نشاط علماء النفس يمكن أن تستخدم بفعالية لحل المشكلات التي يواجهها

المجتمع بوجه عام. وعالم النفس قد لا يكون هو الشخص المعني بشكل مباشر في حل المشكلات الاجتماعية في كثير من الأحيان. إن حصيلة نشاط عالم النفس تستخدم من قبل المرابي في معالجة المشكلات التعليمية والتعليمية، ومن قبل الاقتصادي لترويج السلعة التجارية، ومن قبل العسكري لشن الحرب النفسية، ومن قبل الإكلينيكي لتشخيص وعلاج المريض، ومن قبل المخطط الاجتماعي لخلق ظروف أنسب لتقبل التغيير الاجتماعي. إن حصيلة جهد عالم النفس يهتم أصلاً بعدد هائل من القضايا، وبعض هذه القضايا محددة وذات أهداف مباشرة وآنية، وبعضها الآخر عام وواسع وذو أهداف بعيدة المدى.

فمن القضايا المحددة التي يدرسها علماء النفس مثلاً، كيف يتعلم الأطفال القراءة؟ وما أفضل طريقة لذلك؟ وكيف تتكون المفاهيم الحسابية؟ وما أفضل طريقة لتعليمهم الحساب؟ وما أفضل طريقة لعلاج الإدمان على المخدرات؟ وهل يمكن أن يبصر الضرير إذا هيئنا مناطق معينة من الدماغ كهربائياً؟ وما رأي الناس في التعليم المختلط؟ وهكذا. ومن الملاحظ أن هذه القضايا تحاول الإجابة على أسئلة محددة لتوجيه الجهود التربوية والعلاجية لتحقيق أكبر تقدم ممكن والحصول على أفضل نتيجة ممكنة.

إن جهد عالم النفس لا يكون دوماً منصباً على قضايا محددة من هذا النوع. وهذا الجهد كثيراً ما يكون متجهاً نحو قضايا ذات طبيعة عامة، ويسعى إلى تطوير إطار مرجعي معين أو نظرية معينة حول مشكلة عامة هي أيضاً ذات نفع اجتماعي؛ فعلماء النفس المحدثون وخاصة الشباب منهم يهتمون بالقضايا الاجتماعية التي تهم البشر والتي تعمل على تغيير حياتهم نحو الأفضل؛ ولذا نجد علماء النفس يهتمون بقضايا مثل البحث عن أفضل الطرائق لتنشئة أطفال أكثر سعادة وأكثر إنتاجاً في سنوات الرشد، وقضايا مثل التعرف على الظروف العائلية والاجتماعية التي تساعد على خلق الجريمة والعدوان والتعصب والتمييز والظلم والغربة لتجنبها، وقضايا مثل التعرف على العوامل التي تسبب المرض والتخلف العقلي لمعرفة الظروف التي يمكن أن تعمل على إزالتها لجعل حياة الإنسان أكثر رضا وسعادة.

وعلى الرغم مما قد يبدو أن عالم النفس يعمل لوحده في التعامل مع هذه القضايا، إلا أنه في واقع الأمر كثيراً ما يشترك مع الآخرين في عمل ما من شأنه التأثير على مظاهر النشاط البشري الأخرى، اعتماداً على ما يجده من معلومات تتعلق بسلوك البشر. فهو يسهم في حل المشكلات المختلفة في ميادين القضاء والسياسة والتشريع والاقتصاد والتربية. وللتدليل على ذلك يمكن الإشارة إلى التشريعات المتعلقة بوجود فحص الجاني للتأكد من سلامته العقلية والنفسية عند ارتكابه الجرم في الدول المتقدمة قبل تقديمه للمحاكمة. كما يمكن الإشارة إلى التشريعات المتعلقة بما يجوز عرضه في البرامج التلفزيونية للأطفال وما يمكن أن يعرض على الشاشة الصغيرة في الأوقات المختلفة من النهار أو الليل التي يشاهد فيها الأطفال التلفزيون. وهذه التشريعات التي ظهرت إلى حيز الوجود كانت نتيجة العديد من الدراسات التي أجراها علماء النفس حول العلاقة بين أفلام العنف التي تعرض على التلفزيون وسلوك العدوان عند الأطفال. كما

يمكن الإشارة إلى دراسات اتجاهات الرأي العام التي يستخدمها السياسي والاقتصادي بالتعاون مع عالم النفس في سبيل اتخاذ أفضل القرارات الممكنة.

وبذلك نرى أن علم النفس يعمل على التأثير في الكثير من مظاهر حياتنا، ولذا فهو يعتبر ضروريًا حتى بالنسبة لمن لا يريد التخصص في هذا العلم. ومن هذا المنطلق فقد اعتبرت الكثير من الجامعات في العالم دراسة مساق في مبادئ علم النفس ضروريًا لجميع الطلبة، بل إن بعض دول العالم تدرس مساقًا من هذا النوع على مستوى المدرسة الثانوية.

لقد أصبحت المعرفة بالسلوك البشري ضرورة لكل الناس؛ ذلك لأن الناس يعيشون في سلسلة متواصلة من التفاعل الاجتماعي. ولذا فإن من المؤمل أن يعمل هذا الكتاب على توضيح نقطتين مهمتين في هذا المجال، وهما:

أولاً: فهم سبب تصرف الناس بالطريقة التي يتصرفون بها.

ثانياً: فهم وتقييم الكثير من التعميمات الخاطئة التي تطلق باسم علم النفس حول السلوك البشري. وهذا الفهم لا يأتي إلا من خلال معرفة حقائق علم النفس، ومعرفة الطرائق التي يتبعها علماء النفس للوصول إلى الحقائق والبراهين اللازمة لتقرير اكتشاف جديد.

3-1 تاريخ علم النفس

قبل المضي في الحديث عن الاتجاهات الأساسية في تفسير الظاهرة السلوكية لا بد لنا من التعرف إلى الكيفية التي تطور بها علم النفس حتى وصل إلى مستواه الحالي من المعرفة وطرائق البحث والنظريات. إن محاولة البشرية لفهم سلوك الإنسان والتنبؤ به ترجع إلى حقب بعيدة من الزمان، وقد لا يكون من المغالاة القول إن هذه الجهود تعود إلى تاريخ الخليقة على الأرض. ويمكن الافتراض من جراء ما نعرفه اليوم عن بعض القبائل البدائية التي عاشت بمعزل عن المدنية إلى أيامنا هذه، بأن الفرد البدائي كثيرًا ما كانت تنتابه الحيرة نتيجة أحلامه في الليل، كأن يرى نفسه وهو يذهب إلى الصيد في أماكن بعيدة، أو كأن يقابل الغرباء بل حتى الأموات، ويتحدث معهم، ثم يفيق من نومه ليرى نفسه في مكانه ويخبره الآخرون أيضًا أنه لم يغادر مكانه. فكان من البديهي إذن أن يفترض بأن هناك شيئًا ما يقطن في داخله يستطيع أن يخرج ويتجول بحرية ثم يعود. ولقد فتن الإغريق منذ آلاف السنين بفكرة تقسيم الوجود البشري إلى جسم مادي وروح لا مادية. وفي تاريخ البشرية ظهرت الكثير من المهن التي بنيت على التنبؤ بسلوك الإنسان: كالسحر، والشعوذة، والعرافة. وكثيرًا ما كان الناس يلجؤون إلى أصحاب هذه المهن من أجل تلقي النصح

والإرشاد. إن الخوض في محاولات البشرية هذه لفهم سلوك الإنسان ليس بالأمر اليسير وليس بهدف هذا الكتاب، ولذا فإن الحديث هنا سيقصر على تطور علم النفس الحديث.

ما يميز علم النفس عن المحاولات المتعددة الأخرى لفهم سلوك الإنسان والتنبؤ به هو أن علم النفس الحديث يرفض الاعتقاد بأن العضوية البشرية تسكنها قوى لا يمكن البرهنة على وجودها. وعلى الرغم مما يعتقد قلة من علماء النفس فإن علم النفس لا يعتقد بأن حياة الإنسان تتأثر بمواقع النجوم عند ولادته، كما أن علم النفس لا يرضى بوصف الإنسان طبق الطريقة التي ارتآها الفلاسفة القدامى بغض النظر عن عظمتهم، بالإضافة إلى ذلك فإن علم النفس لا يرى أن هناك نفعاً من وراء الحكم والأمثال الشعبية التي تحاول تصوير شخصية الفرد والتي غالباً ما تكون متناقضة فيما بينها.

وعلم النفس، كما سترى، يدرس السلوك البشري بنفس الطريقة التي يدرس بها الكيميائي نشاطات وحركة العناصر الكيميائية، أو كما يدرس عالم الطبيعة ظاهرة الطاقة أو الحركة. إن دراسته تبنى بشكل أساسي على التجربة المضبوطة، وعلى الملاحظة التي تجري بأكثر قسط ممكن من الدقة والموضوعية، وبذلك فإن علم النفس يمثل تطبيق الأساليب العلمية في دراسة السلوك.

وصل علم النفس إلى شكله الحالي نتيجة جهود متواصلة من عدد كبير من العلماء والفلاسفة؛ فقد أسهم فلاسفة القرن السابع عشر والثامن عشر في تطوير علم النفس عن طريق خلق اتجاه جديد في دراسة عقل الإنسان وسبر أغواره. كما أسهم فيه الفيزيولوجيون في القرن التاسع عشر باكتشافاتهم المتعددة عن الجملة العصبية والدماغ. أما بداية علم النفس الحقيقية كعلم مستقل عن الفلسفة والفيزيولوجيا فتعود إلى سنة (1879) حين أنشأ العالم الألماني فيلهلم فونت (Wilhelm Wundt) أول مختبر لعلم النفس في مدينة ليبزج في ألمانيا.

وفونت الذي ولد لأب قسيس تدرّب ليصبح طبيباً، إلا أنه درس الفيزيولوجيا ولكنه سرعان ما فقد الاهتمام بالجوانب الفيزيائية للسلوك البشري. وبدلاً من ذلك طور اهتماماً فيما يمكن أن نسميه وعي الإنسان (الشعور) (consciousness) وكان مختبره فيما بعد أول مكان في العالم تدرس فيه هذه الظاهرة دراسة منظمة وجادة. وعلى الرغم من أن دراسات فونت وتلاميذه لا تبدو مثيرة الآن إلا أنهم وضعوا الأسس للدراسة النظامية للسلوك البشري. ولسنوات طويلة، وتحت تأثير فونت، أصبحت دراسة الخبرة الواعية للفرد موضوع الاهتمام الرئيس لعلم النفس.

انتقل علم النفس بتأثير فونت إلى أمريكا حيث عرفه وليم جيمس (William James)، الأب الروحي لعلم النفس في الولايات المتحدة، بأنه العلم «الذي يهتم بدراسة الحياة العقلية». ولقد استخدم أوائل علماء النفس طريقة الاستبطان أو التأمل الذاتي (introspection) لدراسة (الحياة العقلية) للفرد؛ حيث

كان يطلب من الفرد أن يحلل عملياته العقلية موضوعية. وكان من الاهتمامات الرئيسة لعلم النفس عندئذٍ، كما أشار جيمس، المشاعر، والرغبات، والأفكار، والمحاکمات العقلية، والقرارات التي يتخذها الأفراد. لم يرضَ الكثير من علماء النفس عن طريقة الاستبطان، واعتبروا هذه الطريقة شكلاً من أشكال الطرائق الفلسفية المعتمدة على الذاتية في تقرير الحقائق. وفي سنة (1391) بدأ جون واطسون (John Watson) في أمريكا ثورة جديدة في علم النفس عرفت بالحركة السلوكية. وكان من أكبر افتراضات هذه الحركة أن (الحياة العقلية) لا يمكن أن ترى أو تقاس، وبذلك لا يمكن أن تدرس دراسة علمية؛ ولذا فإن علماء النفس يجب أن يركزوا على دراسة السلوك الظاهر.

لم يقبل واطسون بمفهوم «الإرادة الحرة» (free will) وبأن الشخص يستطيع أن يتحكم بمصيره، وبدلاً من ذلك قال إن كل ما نفعله محكوم بخبرتنا الماضية، واعتبر كل السلوك البشري سلسلة من الأحداث يقوم فيها مثير باستدعاء استجابة ما. والمثير (stimulus) هو عبارة عن حدث بيئي، أما الاستجابة (response) فهي عبارة عن حركة عضلية مرئية أو رد لفعل فيزيولوجي يمكن ملاحظته وقياسه. وقد اعتبر واطسون أن عملية التفكير هي نوع من الحديث الصامت ما بين الفرد ونفسه.

ومن هذه الحركة التي بدأها واطسون بزغت مدرسة جديدة في علم النفس عرفت بسلوكية المثير والاستجابة، أو سيكولوجية م - س (S - R) اختصاراً. ويركز العلماء في هذه المدرسة وعلى رأسهم عالم النفس الأمريكي الشهير سكينز (Skinner) على دراسة المثيرات التي تؤدي إلى الاستجابات السلوكية، وعلى دراسة عمليتي الثواب والعقاب اللتين تعملان على المحافظة على هذه الاستجابات وتقويتها وتعديلها من خلال تغيير أنماطهما. وعلى الرغم من أن سكينز يعتبر بحق زعيم هذه المدرسة إلا أن أبحاثه تأثرت كثيراً بأبحاث عالم أمريكي آخر هو ثورنديك (Thorudike) الذي بدأ معه بداية القرن الحالي دراسة الترابطات ما بين المثيرات والاستجابات وكيفية تقويتها، وتلك الدراسات أدت إلى ظهور أشهر قوانين التعلم كما سنرى في الفصول القادمة.

وفي الوقت الذي كانت فيه السلوكية تترعرع في الولايات المتحدة، كانت هناك حركات أخرى في أوروبا تنمو وتتطور بشكل سريع. وإحدى هذه الحركات التي نالت اهتماماً ملحوظاً من النواحي التاريخية هي المدرسة الشكلية الجشطالت (Gestalt psychology). بدأت هذه الحركة في ألمانيا في نفس الوقت تقريباً الذي ظهرت فيه السلوكية. فقد بدأ مجموعة من علماء النفس الألمان من أمثال كوفكا وكوهلر وورثايمر (Kofka, Kohler & Weirthimer) بدراسة سلوك حل المشكلات التي توصلوا من ورائها إلى ضرورة الانتباه إلى النمط الكلي في المشكلة موضوع البحث. ويرى علماء الجشطالت أن دراسة أي موضوع نفسي سواء كان ذلك العمليات الإدراكية البسيطة أم الشخصية الإنسانية يتطلب بالضرورة توجيه الانتباه

إلى النمط الكلي؛ حيث إن الكل هو أكثر من مجرد مجموع الأجزاء، وبذلك فإن دراسة الأجزاء لا تعطينا تصورًا جيدًا للمشكلة موضوع البحث. وبذلك نرى بأن هذه المدرسة لا تتفق مع الحركة الأصلية التي بدأها فونت في ألمانيا والتي ركزت على دراسة أبسط الأحاسيس والمشاعر، ولا تتفق أيضًا مع السلوكية التي تفتت المشكلة أو الموقف إلى مجموعة من المثبرات والاستجابات. وقد أدت هذه المدرسة إلى بزوغ المدرسة المعرفية في علم النفس كما سنرى بعد قليل.

وفي النهاية لا بد من الإشارة إلى تأثير فرويد (Freud) على تطوير علم النفس. ويعتبر فرويد علمًا من الأعلام الذي أظهر علم النفس، إلى الدرجة التي يقول فيها بعضهم إن علم النفس يبدأ وينتهي بفرويد، وإن علماء النفس إما أنهم مؤيدون لفرويد أو معارضون له. لم يكن فرويد بعالم نفس أصلًا، بل إنه أعد نفسه ليكون طبيبًا. وفعلاً بدأ فرويد ممارسة الطب في حوالي سنة (1880) في مدينة فيينا، وبدأ اهتمام فرويد يتوجه نحو علم النفس بعد مجابهة عدة حالات من الشلل الوظيفي لأعضاء الجسد، كاليد أو القدم، بدون أن تكون هناك أسباب عضوية لتلك الحالات، وهذا ما يسمى بالهستيريا (Hysteria) بلغة علم النفس، ولقد أدت ملاحظاته الكثيرة حول شخصيات المرضى النفسيين الذين كانوا يترددون على عيادته إلى تطوير ما يعرف بنظرية التحليل النفسي (Psychoanalysis) في بداية القرن الحالي.

وأحد أكبر إسهامات فرويد في علم النفس هو اكتشافه كيفية تأثير العمليات اللاشعورية (Consciousness)، وبشكل خاص الدوافع اللاشعورية على الشخصية الإنسانية. ولقد صدم فرويد العالم حين صور الشخصية الإنسانية على أنها لا منطقية وأنها تقع في كثير من الأحيان تحت رحمة الرغبات اللاشعورية التي لا يرضى عنها المجتمع، كما صدم فرويد العالم عند تركيزه على أهمية الدوافع الجنسية في السلوك البشري حتى عند الأطفال الصغار. ولكنه في نفس الوقت أول من نبّه إلى أهمية خبرات الطفولة في تقرير شخصية وسلوك الراشد، وإلى أهمية العوامل البيولوجية في تطور شخصية الإنسان. ولقد خلف فرويد مجموعة من التلاميذ الذين اتفقوا معه في بعض النقاط واختلفوا معه في بعضها الآخر ولكنهم على أي حال حملوا لواء المدرسة التحليلية في علم النفس وطوروها حتى أصبحت من أكبر المدارس من حيث عدد من ينتمي إليها من المعالجين النفسيين. وكان على رأس هؤلاء التلاميذ أدلر ويونج وأريكسون وهورني (Adler, Jung, Arixon & Horney).

4-1 أهداف علم النفس

ماذا يهدف إليه عالم النفس من وراء نشاطه العلمي؟ إنه يهدف إلى الوصول للمعرفة التي بواسطتها يستطيع أن يفسر العلاقة النظامية بين جملة العوامل الممهدة وبين النواتج التي هي بمثابة السلوك. فالعلم -كما نعرف- هو نشاط موضوعي موجه للكشف عن العلاقات، تحددته وتنظمه قواعد معينة من الملاحظة والكشف والوصول إلى البراهين. فالسلوك هو النتاج النهائي (outcome) الذي تسبقه جملة عوامل تمهد لظهوره (antecedents) وهي التي تعرف عادة بمسببات السلوك التي قد يختلف العلماء حول كيفية عملها وتأثيرها الفعلي على الإنسان الذي تصدر عنه الاستجابة. وهذا الهدف النهائي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال أهداف أصغر هي أيضاً في جملتها أهداف؛ أي علم، ألا وهي الفهم والضبط والتنبؤ.

1-4-1 الفهم (Understanding):

يتمثل الهدف الأول لعلم النفس بالإجابة على السؤالين التاليين: كيف يحدث السلوك؟ ولماذا يحدث؟ إن كل واحد منا يريد أن يعرف كيف تحدث الأشياء ولماذا تحدث على الشكل الذي تحدث فيه، ونحن نشعر شعوراً أفضل عندما نستطيع أن نفسر ظاهرة ما. وكثيراً ما قيل إن الفهم عبارة عن الهدف الأساسي للعلم، إلا أن سكينر (Skinner)، عالم النفس الأمريكي المشهور، يقول إن الفهم هو أبسط شيء يمكن أن نحصل عليه، ففي تسميتنا للظواهر أو تحديد مسبباتها نحاول فهم الظاهرة، كأن نقول «يأكل الشخص لأنه جائع» و «يدخن لأنه اعتاد على التدخين» و «يقا تل لأن لديه غريزة المقاتلة» و «يعزف على العود لأن لديه قدرة موسيقية عليا».

أما وجهة النظر العلمية التحليلية للسلوك فهي لا ترى معنى كبيراً في هذه العبارات؛ وذلك لأنها عبارة عن أوصاف مكررة هي بذاتها بحاجة إلى تفسير. إن خيال الإنسان خصب للغاية، ولذا فإنه قادر على أن يضع قائمة لا متناهية بالأسباب المحتملة للسلوك. ولنفترض أن طفلاً سقط في أحد الأنهار ومات غرقاً، ولنفترض أننا سألنا مجموعة من الناس عن الأسباب المحتملة لموت الطفل فإن من المتوقع أن نسמע إجابات كالتالية تمثل كلها محاولات للفهم:

1- إن آلهة الأنهار كانت جائعة في ذلك اليوم.

2- كان للطفل دافع قوي للاستقلال مما حدا به إلى المغامرة والابتعاد عن البيت.

3- إن فترة شباب والد الطفل كانت لا أخلاقية وإن موت ابنه جاء عقاباً للأب.

4- إن دافع الموت عند الطفل أقوى من دافع الحياة.

5- إن إحدى العرافات قد حجبت له.

6- إن الطفل اختار الموت بحرية تامة وإرادة ذاتية.

7- أن لدى الطفل رغبة لا شعورية في عقاب نفسه.

وكل واحدة من هذه العبارات تقدم نوعاً من الفهم، ومن الناحية العملية، لا يوجد لدينا أساس موضوعي لاختبار ما هو أفضل من بين التفسيرات سابقة الذكر؛ ولذا فإن الأفكار التي تقدم فهمًا حقيقيًا للظاهرة يجب أن تكون من نوع يمكن إثباته تجريبيًا، ولا يمكن نقضه بسهولة عن طريق أفكار أخرى.

1-4-2 التنبؤ (Prediction):

يتمثل الهدف الثاني لعلم النفس بالإجابة على السؤالين التاليين: متى؟ وماذا؟. إن محك أو معيار الفهم الذي يتبناه العلماء هو التنبؤ، ولذا يمكن القول إن أي محاولة لزيادة الفهم تكون ذات قيمة حين تكون نتائج الوصف هي التنبؤ الدقيق عن الظاهرة الأصلية من ناحية، أو حين يؤدي الوصف إلى التنبؤ عن ظواهر أخرى ذات علاقة بالظاهرة الأصلية. ففي العلم تُقَيِّم المفاهيم والنظريات من خلال المدى الذي تسمح فيه بإجراء التنبؤات التي لم يكن بالإمكان أن تحدث في غياب هذه المفاهيم أو النظريات.

فعالم النفس عن طريق الدراسة التجريبية يستطيع أن يتنبأ، مثلًا بمستوى التحصيل الأكاديمي للطلاب من معرفته بدرجة ذكاء الطالب، وعلى الرغم من أن التنبؤ لا يكون دقيقًا مئة بالمئة، كما هو الحال في العلوم الطبيعية، إلا أنه تنبؤ في الاتجاه الصحيح، وبدرجة معينة من الاحتمالية، ويساعد المرء على تخطيطه واتخاذ القرارات التربوية.

ولا بد هنا من التفريق بين الشعور الذاتي بالفهم من ناحية وبين الدقة التنبؤية من ناحية ثانية. فالشعور بالفهم هو عبارة عن أثر ذاتي يسعى وراءه الكاتب والفنان، وليس العالم. لقد قال أولبورت (Allport)، كما قال فرويد من قبله، بأن «كل الكتاب علماء نفس بالبديهة أو بالحدس»، وهذا القول يعكس قدرة هؤلاء الكتاب على فهم الشخصية وسر أغوارها، وعلى تقديم وصف شامل ودقيق لأكثر الانفعالات والمواقف الإنسانية تعقيدًا. وربما أن خير مثال على ذلك هو ما كتبه دستوفسكي، الكاتب الروسي الشهير في كتابه الجريمة والعقاب، والمقامر. إلا أن هذا فهم لم يأت نتيجة التصنيف والقياس للسمات أو الدوافع أو العلاقات البنائية للشخصية البشرية.

1-4-3 الضبط (Control):

يعني الضبط في المختبر قدرة العالم في أن يتحكم ببعض العوامل المستقلة لمعرفة أثرها على العوامل التابعة بالطريقة التي سوف نراها بعد قليل. وهذا يستدعي بالضرورة ضبط بعض خصائص العالم الخارجي وكذلك بعض الخصائص المتعلقة بالفرد موضوع الدراسة. إن محاولة ضبط العوامل هو الذي يميز العالم